

صناعة السيوف الإسلامية

في الشرق الأدنى في العصور الوسطى

١ - مواطن الحديد

إن ما وصلنا من المراجع العربية القديمة عن المعادن والحديد منها بصفة خاصة قليل جداً . ومعظم ما عرفه المسلمون القدامى عن صناعة هذا المعدن الهام نقلوه عن الهنود والفرس .

ولم نعر على رسالة تناول فيها مؤلفها الكلام على صناعة الحديد أو استخدامه عند العرب القدامى قبل القرن التاسع الميلادي . وقد يكون ما كتبه الكندي الفيلسوف العربي أقدم ما وصلنا في هذا الموضوع (١) .

بدأ الكندي رسالته بالكلام على أنواع الحديد التي تصنع منها السيوف فقال : إنها إما أن تصنع من الحديد الخام الذي يستخرج من المناجم أو من الحديد المصنوع الذي تضاف إليه مواد أخرى في أثناء الصهر . ثم قال ان الحديد المستخرج من باطن الأرض ينقسم إلى نوعين :

١ - حديد الشابرقاني وهو الحديد المذكور الصلب القابل للسقي .

٢ - حديد النرماهن وهو الحديد الموثث الرخو الذي لا يقبل السقي وقد تطبع بعض السيوف من النوعين المركبين معاً .

وعرف الكندي الفولاذ (٢) بأنه ليس بمعدني أي لا يستخرج على

(١) مخطوطة مكتبة ليدن بهولنده رقم ٢٨٧ Arab . راجع مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجلد ١٤ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٢ ص ١ - ٣٦ بعنوان السيوف وأجناسها للكندي . نشر المخطوطة القائم مقام عبد الرحمن زكي .

(٢) الفولاذ هو الحديد المصنوع من خبثه وأصل الكلمة بالفارسية بولاد .

طبيعته من المنجم وقال عنه أنه هو الذي يصنّف بخلط بعض المواد في أثناء عملية السبك فتشدد رخاوته ويصير متيناً لئلا يقبل السقي ويظهر على نصله فرنده^(١). وقد اتفق أبو الريحان البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) العالم الذي تبحر في علوم الهند وفارس مع رأي الكندي وأشار إليه فيما كتبه عن الحديد^(٢) ولم يصف جديداً في هذا الموضوع .

كذلك معاصره الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) لم يصف على تلك المعلومات شيئاً قليلاً أو كثيراً . فقد ذكر « ان الحديد ثلاثة أصناف شابورقان ونرماهن وفولاذ مصنوع »^(٣) .

وذكر ابن البيطار (توفي عام ١٢٤٨ م) من علماء الأعشاب أن « للحديد معادن كثيرة وتتفاضل أجناسه . فمنه ما هو رخو ومنه ما إذا ألقيت عليه الأدوية صلبته وزادت في قوته . ومنه ما إذا سقي الماء زادت صلابته وحدته . ومنه ما إذا لم يسق الماء كان أخدمته . وأهل الصناعات كلها يحتاجون إليه ولا غنى للناس عنه ... »^(٤) .

وكنا نتوقع تقدم إمام المسلمين بالحديد بعد ذلك . لكننا رأينا القلقشندي المؤرخ المصري (١٣٥٥ - ١٤١٨) في أخريات القرن الرابع عشر عند كلامه على نوعي حديد السيف يكرر الآراء القديمة التي ذكرها الكندي من قبله بمئات السنين وهو في ذلك يقول :

« السيف إن كان من حديد ذكر وهو المعبر عنه بالفولاذ . قيل سيف فولاذ . وإن كان من حديد أنثى وهو المعبر عنه في زماننا (القلقشندي) بالحديد قيل سيف أنيث . فإن كان متنه من حديد أنثى وحداه من حديد ذكر كما في سيوف الفرنجة قيل سيف مذكر . ويقال أن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض

(١) الفرند فارسي معرب وهو جوهر السيف وماؤه . الجواليقي في المعرب ص ٢٤٣ .

(٢) أبو الريحان البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر . ص ٢٤٨ - ٢٥٨ . مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بمحيدراباد الدكن . عام ١٣٥٥ هـ .

(٣) ابن سينا : القانون في الطب . ج ١ ص ١٧٩ .

(٤) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . ج ٢ ص ١٣ . طبعة مصر

وبردت صارت حديداً . وربما حفر عليها وأخرجت فطبت سيوفاً . فتجىء في غاية الحسن والمضاء » (١) .

هذا أهم ما وصل إلينا عن الحديد في مؤلفات علماء المسلمين . وهي معلومات لم تصف شيئاً جديداً إلى علم المعادن . وذلك بالزغم من وجود واستغلال مناجم كثيرة للحديد في أنحاء العالم الإسلامي سيأتي الكلام عليها .

لقد كانت الهند أهم أقطار الشرق في استنباط الحديد وقد ذكر في مواضع شتى من ملاحمها الرائعة . واستخدمه السلاحون الهنود منذ القدم في عمل النصال الجيدة . وقد ذكر البيروني أنه لا توجد أمة أبصر بأنواع السيوف من الهند (٢) .

كذلك أشار الأدريسى (حوالي ١٠٩٩ - ١١٧٣ م) إلى مضاء سيوف الهند وشهرتها بجودة الصقل لوجود الأثك (٣) الذي استأثرت « قلعة » بإنتاجه كما قال أن الهنود يحسنون صنعه وتركيب أخلاط الأدوية التي يسبك بها الحديد اللين . وصناعهم يجيدونها فضلاً على غيرهم من الأمم . وذكر الأدريسى أيضاً أن أنواع الحديد السندی والسرنديبي والبيمانى (البيلمانى) (٤) تتفاضل كلها بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وأحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء . وأنه لا يوجد شيء أمضى من الحديد الهندي . وهو شيء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته (٥) .

والآن وقد تكلمنا عن حديد السيوف الإسلامية ننتقل إلى مواطنه الهامة في أنحاء الشرق الإسلامي .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى . ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر . ص ٢٥٤ .

(٣) الأثك فارسي معرب وهو معدن الرصاص الأبيض المعروف إلى الآن في الهند باسم « رانج » والأثك والرانج شيء واحد . وتقع بلاد الرانج حول مصب اروادى في بورما . انظر أيضاً ابن البيطار : جامع مفردات لأدوية . ج ٢ ص : ١٤ .

(٤) كانت بيلمان مركزاً لصناعة السيوف البيلمانية تقع على ملتقى حدود الهند والسند والهند والقول بأنها من أرض اليمن لا يقوم على سند . البلاذري ص ٤٤٠ و ٤٤٢ ونقلها ياقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤١ .

انظر أيضاً كتاب السلاح عند العرب لمؤلفه Schwarzlose ص ١٣٠ .

(٥) الأدريسى : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ١٠٨ - ١٠٩ . ليدن عام ١٨٦٨ .

لم تخل كتب الرحالة والجغرافيين من المسلمين من ذكر مناجم المعادن وأخصها الحديد في البلاد الإسلامية .

فقد ذكر المقدسي وقد عاش في القرن العاشر أنه على مقربة من شاهق (١) كانت توجد مناجم الحديد . التي اشتهر معدنها في طبع النصال الجيدة (٢) وإلى الجنوب الشرقي من تلك البلدة على حدود ذرايجرد (٣) عند قطروه استغلت مناجم الحديد الطيب . وذكر الاصطخري الذي عاش في حوالي القرن العاشر (م) أنه كان بالقرب من ماراثمنده وميناق مناجم الحديد الذي كانت تصنع منه الأدوات الحديدية وتصدر إلى نواحي خراسان وبغداد (٤) .

وأشار ياقوت والمقدسي إلى ثروة صقلية في الحديد الذي كان يصدر إلى الهند لصنع الآلات البديعة في خلال القرنين الثامن والتاسع (٥) كما ذكر اليعقوبي أنه فيما بين القرنين التاسع والعاشر كانت تستغل مناجم الحديد في شمال إفريقية (٦) كما اشتهرت بلدة مجانة على الحدود بين تونس والجزائر بمناجم الفضة والحديد والرصاص والأنتيمون وكانت تنقل الحامة إلى صوصة مرفأ المغرب (٧) .

وفي جبل نغم القريب من صنعاء في اليمن كان يوجد الذهب الجيد والحديد . وكانت تصنع منه السيوف على أيام دولة حمير وقد سميت بالسيوف البرعشية لأنها صنعت في زمن برعشية الملك المشهور .

ومع ذلك فقد كان يرد الحديد الذي استعمل في صناعة السيوف والسلاح من خارج شبه الجزيرة العربية . كان يجيء معظمه من الهند وتحمله السفن إلى

(١) شاهق بلدة في إقليم فارس .

(٢) Le Strange, G : The Lands of the Eastern Caliphate p. 278 .

(٣) إحدى كور فارس . ياقوت : معجم البلدان . ج ٤ ص ٤٦ .

(٤) الاصطخري : مسالك الممالك . ص ٣٣٦ و ٣٤٨ . ليدن عام ١٩٢٧ . انظر أيضاً

معجم البلدان ص ٣٩٥ و ٤٢٥ و ٧١٠ طبعة أوروبا .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٠١ والمقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٦) اليعقوبي : ص ٧٤ والبلاذري ص ٦٦ .

(٧) Revue des Etudes Islamiques. Vol. 1935. p. 303.

حرفاء البحرين وعمان وايمن . ونشأت في تلك الجهات المراكز الهامة لتوزيعه على
صناع السلاح في شبه الجزيرة .

ومن المحتمل أن يكون البدو قد اهتموا إلى معرفة مواقع مناجم الحديد
القديمة في شبه جزيرة سيناء وانهم كانوا ينقلونه إلى صنعاء حيث تطبع نصال
السيوف والمدى (١) .

وكان بالشام وعلى مقربة من بيروت (٢) وفي كرمان (٣) وكابل (٤)
مناجم للحديد . كما وجد في القوقاز وأرمينية .

وفي آسيا الصغرى ورث الترك مناجم الحديد التي كانت للبيزنطيين إذ أن
المعروف أن سلسلة جبال طوروس غنية بنخامة الحديد، وقد توافر في ولاية وأدنة
وأما كسيا في كيليكية العليا وجالاطيا (٥) .

تلك هي معظم مواطن الحديد في الشرق الإسلامي التي اتفقت عليها المراجع
العربية . ولقد اندثرت معظمها بسبب الإهمال أو سوء الاستغلال . ولا يخفى
أنه من الصعب التكهن بمصدر نخامة الحديد للسيوف القليلة التي وصلت إلينا
كما يمكن نسبتها إلى العصور الإسلامية الأولى .

الصين والهند

وقد عرف الصينيون استخدام الحديد منذ القدم وذكر العلامة برتون
أنه في عهد أسرة هان (Han) كانوا ينصبون كبار صناع الحديد على نواحي
مقاطعة لي أنج شو القديمة للإشراف على مراكز استغلال الحديد وصناعته (٦) .
وقد ذكر ليه - تسي المؤلف الصيني والفيلسوف المشهور (Leih-Tze)

Boheim : Die Wafferkunde. page 618. (١)

Revue des Etudes Islamiques. Vol. 1935. p. 305. (٢)

(٣) المقدسي : ص ١٨٤ وابن الفقيه : ص ٢٠٦ والادريسي ص ٢٢ .

(٤) المقدسي : ص ٤٧١ وابن حوقل : ص ٣٢٨ .

Forbes, R.J. : Metallurgy in Antiquity. p. 386 Leiden. 1950. (٥)

Burton : The Book of the Sword. p. 113. (٦)

حوالى عام ٤٠٠ ق . م . المعلومات الدقيقة عن الصلب ووصف عملية طرقه-
وسقيه (١) وهى فى تفصيلاتها لا تختلف عما آلت إليه فيما بعد .
وجاء فى حديث القلم (Pri-Tan) الذى كتب فى عصر أسرة Ming
مينج فيما بين (١٣٦٦ - ١٦٤٤ م) إيضاحات لعملية تحويل الحديد إلى
الصلب . وقيل أن ما جاء فيما كتبه جابر بن حيان الكيمياءى العربى عن نفس
الموضوع لا يختلف كثيراً (٢) .

هذا إلى جانب مناجم الحديد القديمة فى نواحي شانسى وشيليلى فى أقاليم
(هو) حيث استغلت خامات الحديد والفحم بوفرة وما زالت باقية على حالها إلى اليوم
وكانت الحكومة تتولى الإشراف على مناجم الحديد ومصانعه حوالى القرن
السابع (ق . م) ذلك لأن الخامة كانت تعود بدخل وفير إلى خزانتها (٣) وكان
حديد الصين يصدر إلى غرب آسيا لكننا لا نستطيع التأكد مما إذا كانت صناعته
فيها فاقت زميلتها فى الهند .

وتشير بعض المراجع القديمة إلى تصدير الحديد من الصين إلى الشرق
الرومانى ويقول بلينى (توفى عام ٧٩ م) أن حديد الصين كان أجود الأنواع
التي عرفت فى الأسواق الرومانية . وكان يليه الحديد المستورد من بارثيا (٤) .
ويعارض هذا الرأى وارمنجتون العالم الإنجليزى قائلاً: إن هذا الحديد الذى
تكلم عنه بلينى إنما جاء من مملكة شيرا (Chera) فى جنوب الهند وليس من الصين وتلك
المملكة كان يقصد إليها الكثير من تجار الإغريق فى الامبراطورية الرومانية (٥) .

I bid, (١)

Sarton, G : Introduction to history scicefone . Vol . i. pp. 532-533. (٢)

O. Jance : Quelques antiquités chinoises d'un caractère Hall stien (٣)
in the museum of Far Eastern antiquities, Stockholm, Bulletin. No. 2, pp.
182-3. 1930.

Exomnibus autem generibus, palma Serico perro est", Pliny, Historia (٤)
Naturalis, XXXIV, 14(41), 145, quoted in F.Hirth, China and the Roman Orient,
loc., p. 225-116, footnote 2.

Warmington, E.H. : The Commerce of the Roman Empire and India, (٥)
:loc. cit. pp. 157-158.

وقد ذكر ابن المتوج عندما تكلم على فنار الإسكندرية « أنه كان عليه
مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من
البحر من جميع بلاد الروم ... » (١) .

والمتفق عليه عند علماء الآثار القديمة أن تاريخ بناء الفنار
يتقدم حوالى ٣٠٠ سنة عن تاريخ إصدار الحديد من الصين الذى ذكره «بلينى» .
وقد ظلت شهرة الحديد الصينى فى الأسواق الرومانية على أهميتها إلى العصر
العربى بدليل أن ابن خرداذبة فى القرن التاسع الميلادى تكلم عن حديد الصين
الجيد الذى كان يصدر من مرفأ لوكينى وهى كاتبجار القديمة المطلة على خليج
تونج - كنج .

وبعد مضى ثلاثة قرون يذكر الادريسى - الحديد - بين أهم السلع
التي تصدرها الصين إلى العالم الإسلامى عن طريق عدن (٢) . ولذلك لاستبعد
أن مصانع الحديد والسلاح فى دمشق والمدن الإسلامية الأخرى فى الشام وغيرها
التي اشتهرت بصناعة السلاح كانت تستورد الحامة من الصين إلى جانب ما كان
يستخرج من مناجم الحديد المعروفة فى العالم الإسلامى (٣) .

فاذا انتقلنا إلى الهند . وجدناها قد عرفت الحديد منذ أقدم العصور .
والهند أولى بلدان العالم فى استغلاله للصناعة . وتكاد تتفق كلمة مؤرخى المعادن
على أن الهند أقدم مواطن الحديد حتى قبل غزوة اسكندر المقدونى . وقد عرف
الهنود الإفادة من هذا المعدن وبفضل مهارة صناعتهم توصلوا إلى صناعة الصلب
الذى تفوق على ما كان يصنعه غيرهم فى بلدان الشرق أو الغرب . ولا سيما
فى صناعة النصال . وكانت تصدر الصلب إلى فارس القديمة .

(١) ابن المتوج : إيقاظ المنفل ونقله عنه السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار
مصر والقاهرة . ص ٤٤ مصر (طبعة حجر) .

Chan Ju-Ku : Cru-fan-Chi, trans. F. Hirth and W.W. Rockhill. St. Petersburg,
1911, p. 4, n. انظر أيضاً :

Jaubert, P.A. : Geographie d'Edrisi, Paris. 40, t. 1. p. 51. Paris 1836.(٢)

Huzagyin, S.A. : Arabia and the Far East. pp. 200. Cairo. 1942. (٣).

وجاء فيما ذكره ستسياس (Ctesias) المؤرخ القديم خبر سيفين فريدين صنعا من حديد الهند . أخذهما من ملك الفرس وأمه . (١) .

وفي ملحمة الهندوس « ريجفيدا » التي كتبت منذ ثلاثة آلاف عام يشار إلى أن الإله إندرا (Indra) استعمل الحديد في صناعة سلاحه ودرعه (٢) .

ومما يؤيد وجود أنواع كثيرة من الحديد أنه يعرض إلى اليوم في متحف التاريخ الطبيعي بكونولومبو في سيلان (٣) مائتي وخمسين صنفاً من الحديد عرفت في الهند منذ القدم . وأكثرها في المدن البائدة في سيلان وحدها . ويعود تاريخها إلى خمسمائة عام ق . م .

فلا غرو إذا وجد الحديد الهندي طريقاً ممهداً إلى أسواق العالم القديم ولا سيما في أهم صناعة كانت تجتذبه إذ ذلك ... ألا وهي صناعة السلاح .

وقد جاء ذكر الحديد الهندي « Ferrum Indicum » بين السلع المتنوعة الواردة من الشرق التي تجي عليها الضرائب في قوانين ماركوس أوريلوس وكدمودوس .

ويبدو أن العصر الذهبي لصناعة الحديد في الهند في العصور الوسطى الأولى كان ما بين القرنين الخامس والسادس . في تلك الحقبة بلغ الصناع أسمي المراتب في فهم لأنهم وجدوا الحامة المثلى كما أجادوا الأساليب الفنية لتحويلها ولتشكيلها حسب رغباتهم . والعامود الحديدى (L'at) في دهلي بالقرب من قطب منار خير ما يؤيد علو منزلة هؤلاء الصناع الهنود (٤) وهناك أعمدة أخرى أصغر منها في نيودلهي وكلها لم تظهر عليها أية آثار للصدام مما يؤكده مهارة الصناع في الهند منذ ١٥٠٠ عام تقريباً (٥) .

"Yule's Marco Polo, note, Vol. 1, p. 88.

(١)

Goodale : Chronology of Iron and Steel p. 15.

(٢)

Ibid, p. 23.

(٣)

(٤) هذا العامود عبارة عن قطعة صلبة من الحديد المطاوع تزن حوالي ١٧ طناً وتشتمل على ثمانين قدماً مكعباً من المعدن . وقطر العامود حوالي ٤٢ سنتيمتراً ويصل في القمة إلى ثلاثين سنتيمتراً . . ويصل ارتفاعه إلى ١٥ متراً .

N.S. Krishnan: Indian Minerals Vol. VI. No. 3. pp. 114-115.

(٥)

ظلت الهند مورداً لحاجيات الشرق من الحديد إلى العصور الوسطى. فقد اتفق معظم المؤرخين على أن النصال الدمشقية كانت تصنع من حديد مناجم كونا ساموندروم في حيدرآباد. وكان ينقله التجار الفرس إلى دمشق. وكان هؤلاء يعنون بانتقاء الحامة الجيدة ويغسلونها ويحمصونها أحياناً ثم يوقدون عليها بالفحم الخشبي في أوان من الفخار وبعد وقت طويل يتركونها لتبرد ببطء وبعد ذلك تبدأ عملية الطرق والتسقية. الخ ليصنعوا منها خير النصال. وكانت الأخلاط التي يضعونها مع الحديد خالية من الكبريت والفوسفور وتحتوي على قليل من النحاس الأحمر (١).

وما حققه البيروني الفيلسوف الذي تبخر في علوم الهند لجد تميم. وأبحاثه عن الفولاذ وأصنافه لقيمة حقاً. وذكره لأنواع الحديد الذي تصنع منه السيوف والخناجر الجيدة وهو يؤكد أن الصنعة في الهند قد فاقت جميع البلاد.

ولقد اتفق معه في ذلك الأدرسي الجغرافي (١١٠٠ - ١١٧٣ م) فقد قال عن الهنود أنهم يحسنون صنعة وتركيب أخلاط الأدوية التي يسبكون بها الحديد اللين فيعود هندياً منسوباً إلى الهند. وصناعهم يتفوقون في إجادة طبع السيوف على غيرهم من الأمم. وكذلك الحديد السندي والسرنديبي والبيلماني كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وإحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء. ويقول الأدرسي أنه لا يوجد شيء أمضى من الحديد هندي وهو شيء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته (٢).

وأثنى كثير من الرحالة الأوربيين على الحديد الهندي والنصال الهندية وكانوا يطلقون عليها ألفندي (Alfandi) وألندي وأونديك (Ondique). الخ (٣) وكان هؤلاء الرحالة ومنهم ماركو بولو المشهور يطلقون هذه التسميات على الصلب الهندي (٤).

(١) Goodale: Chronology of Iron and steel. p. 26.

(٢) الأدرسي: نزعة المشتاق ص ١٠٨ - ١٠٩

(٣) Dozy and Engleman: 2nd Edition. pp. 144-145. Hint of Al-Hind.

Jour. R.A.S. IX. p. 255.

(٤) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) رحلة بندقي رحل مع أبيه وعمله في زيارة قوبلاي خان وقد أعجب هذا بماركو ثم كلفه بعدة مهام وتعلم عدة لغات ثم طاف ببلاد لم تطأها قدم أوربي من قبل واستغرقت أسفاره حوالي ٢٥ عاماً (١٢٧٠ - ١٢٩٥) أنظر أيضاً:

Maroc Polo: Vol. 1, p. 93. The granuls of Marco Polo: Broadway

Travellers, Edited by Sir E.D. Ross. pp. 39, 48, 73.

وعلاوة على ذلك ما جاء في قصائد العرب وملاحم الفرس ولا سيما في شاهناما الفردوسي عن فضائل النصال الهندية التي احتلت مكانة سامية في بلدان العالم الإسلامي في خلال العصور الوسطى .

٢ - مراكز صناعة السيوف الإسلامية

(١) شبه الجزيرة العربية :

تقابلنا اليمن كأهم موطن ازدهرت فيه صناعة السلاح منذ القدم في الجزيرة العربية . ولا غرو في ذلك فاليمن قريبة من سبل الملاحة كان يقصد مرافئها السفن المحملة بمتاجر الهند ومن سلعها الحديد الجيد الذي كانت تصنع منه السيوف والخوذات .

ويبدو أن السيوف اليمنية تضاءلت شهرتها بعد انتشار الدعوة الإسلامية في الأقطار المجاورة . ولعل السبب يعود إلى سقوط مملكة حمير قبيل الإسلام ثم انضواء اليمن تحت أعلام الدين الجديد وازدهار صناعة السلاح في بلاد الشرق الإسلامي التي فتحها العرب كإيران والشام .

وفي بلاد الغساسنة التي تقع شمال غربي شبه الجزيرة اشتهرت مؤتة بطبع صنف ممتاز من السيوف عرف في النصوص العربية بالسيوف المشرفية (١) ورد ذكرها في شعر الجاهلية ، وقد قال عنها ضرار بن الأوزر :

ولو سئلت عنها جنوب لحبرت عشية سالت عقرباء بها الدم

عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمم (٢)

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٥٨ - ١٦٠ . القاهرة عام ١٣٤٩ هـ .

والمشرفية هي السيوف المنسوبة إلى المشارف وهي من قرى العرب الدانية من الريف واحداها مشرف . ويوجد رأى آخر يقول بأن السيوف المشرفية تنسب إلى مشرف وهو سلاح من ثقيف .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٣ . طبعة مصر .

عقرباء منزل من أرض اليمامة .

وفضلاً عن ذلك فقد كان العرب في الجاهلية يجلبون السيوف من سلاحها بنواحي العراق والأبلة (١) .

(ب) إيران :

اشتهرت إيران منذ أقدم العصور بصناعة السيوف وكان ذلك قبل الفتح الإسلامي نقرأ عن ذلك في فصل عقده الرحالة أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه بعنوان : « ذكر ما خص الله تعالى كل بلدة بشيء من الأمتعة دون غيرها » . قال (٢) :

« ... ولفارس فضل في اتخاذ الآلات الطريفة المحكمة من الحديد . حتى لقد قال بعض الحكماء عندما وقف على أشياء طريفة عند بعض الملوك من آلات فارس : لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد . وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا . فهم أحذق الأمم بالأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن (٣) ... » .

ولقد توافرت لدينا الأدلة الكثيرة على ازدهار صناعة السلاح الإيرانية ولا سيما السيوف في عدة مدن في إيران الإسلامية . وسنذكر من أهمها :
شاهق :

ذكر البلخي من جغرافي القرن العاشر أن من حديد شاهق تصنع السيوف والنصال الأخرى . وكانوا يطلقون عليها النصال الشاهقية (٤) ، وقد أشار الفردوسي في الشاهنامه إلى مضاء سيوف شاهق وجودتها في منظوماته الخالدة .

(١) الأبلة بلدة على شاطئ دجلة البصرة وهي أقدم من تلك ، وقد وصفها ناصر خسرو وكانت في القرن العاشر زاوية بها قصور وجوامع وفنادق . وقد درست ويحتمل أن تكون المحمرة قد قامت على أنقاضها .

أنظر أيضاً : Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate. p. 47.

(٢) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٢٥١ . ليدن عام ١٣٠٢ هـ .

(٣) الجوشن هو الدرع أو صدر الدرع وهو مثل الزرد . يتكون من حلقات متداخلة مثبتة على صفائح رقيقة من التنك (الصفائح السميك) .

(٤) Le Strange : Trans. Description of the Province of Fars in Persia. (٤)

London. Asiatic Soc. Monographs. No. XIV, 1912, page 24.

كرمان :

ولم يفت ماركو بولو الرحالة البندقي (حوالى ١٢٥٤ - ١٣٢٤) الذى جاب أنحاء العالم الشرقى فى القرن الثالث عشر أن يذكر ملاحظاته عن صناعة السيوف فى كerman التى كان يجيد أهلها صنعها مع السروج واللجم والمهاميز والقسى وجعبات السهام (١) .

وعلاوة على ما كان بالقرب من كerman من مناجم الحديد . فقد كانت تستورد الصلب الهندى الجيد لاستعماله فى صناعة النصال البديعة .

وقد أشار باولوس جوفوريوس (Paulus Jovius) إلى ما كان لكerman من الصدارة فى إجادة صناعة السيوف وأسنة الرماح فى القرن السادس عشر وكان الترك يقبلون على شرائها بأثمان مرتفعة . كما أنها كانت مضرب الأمثال فى الجودة (٢) .

قم :

وذكر الرحالة أوليريوس (Olearius) فى وصف رحلته التى دون أخبارها فى منتصف القرن السابع عشر أنه تصنع فى قم أبداع النصال الإيرانية وقال له أهل البلدة أنهم يبيعون النصل الواحد منها بما يعادل ثمنه عشرين Sécus وذكر أوليريوس أيضاً أن الصناع يستوردون الصلب من بلدة ميريس التى تبعد عن أصفهان بمسير أربعة أيام . وتقع ميريس خلف جشد . وعلى مقربة من ميريس يرى جبل دماقند حيث توجد مناجم الحديد الغنية والتى تصنع منها النصال الجيدة (٣) .

خراسان :

وقد تحدث الكونت فرييرسان بوف فى كتاب رحلته التى قام بها فى القرن الثامن عشر عن النصال النفيسة التى كانت تصنع فى خراسان . تلك

(١) Komroff : Ed. The Travels of Marco Polo. p. 42.

See also : The Book of Ser Marco Polo. Vol. I. p. 92-93. Murray. 1921.

(٢) Yule: Marco Polo. History of his own times. Book XIV, Vol. I. p. 89.

(٣) Olearius : Voyage ... fait en Moskovie, Tartari, et Perse. Leiden 1719.

Vol. II. page. 681.

الصناعة التي أجادها سلاحو خراسان منذ نقل إليها تيمورلنك من دمشق جماعة من أمهر السلاحين (١) . ثم قال أن نيسابور اشتهرت بصناعة السلاح الأبيض منذ القرن العاشر . كما ذاع صيت قزوين في ميدان إنتاج النصال الجيدة التي كانت تنافس بها نصال دمشق .

وفي الوقت الذي رحل فيه الكونت فرييرلم يكن في خراسان مناجم للحديد . إذ كانت تستمد الصلب من لاهور في الهند .

وعلى كل حال فإن شهرة إقليم خراسان وسيستان في صناعة الألفاف المعدنية معروفة . ولاسيما في الفترة التي تقع بين القرنين العاشر والرابع عشر ، وظل إقليم خراسان في طليعة أقاليم إيران في صناعة السلاح إلى القرن التاسع عشر (٢) .

قزوين :

وقد مدح الكونت فرييرسان بيف نصال قزوين المقدسة وفضلها على النصال الدمشقية من حيث الصنعة (٣) .

خوارزم :

واشتهرت خوارزم بصناعة السيوف والخوذ والقسى كما عرفت « شاش » إحدى مدن إقليم ما بين النهرين بسيوفها الجيدة (٤) وفي ذلك الاقليم اشتهرت ماراत्मنده وميناك بالحديد الذي كان يصدر إلى خراسان وأفغانستان وبغداد (٥) شهرت شيراز كمركز لصناعة السلاح الجيد (٦) .

(١) Comte de Ferrières-Saineboeuf : Mémoires historique politiques et

Geogr. 1782-89. Paris. Vol. II. p. 9.

(٢) Egerton of Tatton : Indian and Oriental Armour. p. 57. London. 1896.

Ibid. p. 44.

(٣) أنظر أيضاً :

Le Strange : The Lands of Eastern Caliphate p. 429.

Ibid. page. 459.

(٤)

(٥) الاصلطخرى : مسالك البلدان ص ٣٣٦ و٣٤٣ و٣٨١ و٣٨٢ و٣٨٨

والمقدسى : ص ٢٧٨ وياقوت ج ٢ ص ٣٩٥ و ٤٢٥ .

Smith, Murdoch : Persian Art.

(٦)

أصفهان :

ولا يفوتنا إغفال ذكر إصفهان الخراسانية ، تلك المدينة التي كانت حاضرة فارس القديمة قبل طهران ، والتي زاول فيها أسد الله أمير السلاحين الإيرانيين حرفته الجميلة في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر وبعده ابنه وتلامذته .

وواضح من وصف الرحالة الفرنسي جان شاردان (١٦٤٣ - ١٧١٣) — وقد زار إيران في عصرها الذهبي — إعجابه بالسيوف الفارسية^(١) وقد أدهشته براعة الطبايعين الإيرانيين ولا سيما في صناعة السيوف والقسى .

ويرى بعض مؤرخي الفن الإسلامي أن « بلخ » مقر السامانيين كانت في يوم من الأيام من أهم مراكز صناعة السلاح حيث توارث السلاحون أسرار فهم جيلا بعد جيل .

وقد وصلت إلينا أسماء بعض السلاحين المشهورين في إيران . وعلى رأسهم أسد الله الأصفهاني . والحديث عن السيف في إيران في أروع صوره لا يستكمل إلا بذكر هذا الطبايع الملهم الذي لا يعرف بالدقة تاريخ ميلاده أو وفاته . لكنه عاش في أيام حكم الشاه عباس الأكبر (١٥٨٧ - ١٦٢٨) .

وانتساب أسد الله إلى أصفهان عاصمة إيران القديمة ليس دليلاً على أنه أصفهاني المولد . والمؤكد أنه أقام فيها لما كان يزاول صناعته . فطبع عدداً كبيراً من النصال البديعة التي نقش عليها اسمه . وتحتفظ اليوم دور التحف في القاهرة وإستانبول وآثينا وطهران وموسكو وباريز وفيينا وبرلين ولندن ونيويورك ببعض أسيافه النادرة . وتلك تمتاز بصفاء فصاها وبهاء فرندها ونخلوها من الزخارف والجواهر النفيسة . نقش عليها اسمه واسم صاحب السيف وآية من القرآن الكريم وغالباً ما كان يكتب اسم الشاه هكذا :

(١) Chardin: Voyage de M. et Le Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient . tome IV. p. 249.

أنظر أيضاً : Sir John Chardin : Travels in Persia. The Argonaut Press. London London. 1927. p. 270-271.

« شاه عباس بنده ولايت » أى عباس عبد الله المختار

وقد أخذ الكثير من السلاحين في إيران وغيرها بعد موت أسد الله في نقش اسمه على نصالهم طمعاً في الربح الوفير . ولاشك أن سيوفهم ليست في المرتبة الفنية التي امتاز بها الصيقل الكبير . وقد اختلف أسلوب نقش أسمائهم عن أسلوبه . ومن اليسير على الخبير أن يميز بين نتاجهم ونتاج أسد الله . ولذلك لا غرو إذا شاهدنا بين مجموعات السيوف في المتاحف الكبرى عدداً لا يستهان به من تلك السيوف المقلدة التي لا تنسب إلى أسد الله ولأن معظمها مؤرخ بتاريخ متأخر كما تمرن الثامن عشر مع أن أسد الله زاول مهنته بين أخريات القرن السادس عشر

وسنذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر بعض سيوف أسد الله . ففي متحف مجموعة والاس (Wallace Collection) في لندن سيفان قبيعاتها على شكل رؤوس حيوانات وهي مطعمة بالمينا ولها حد واحد ونقش على نصالها اسم أسد الله مكفناً بالذهب يتلوه كلمة « بدوح » . ذلك الطلمس الذي ينقش كثيراً على النصال الفارسية التي تنسب إلى ذلك العصر وعلاوة على هذين السيفين في متحف والاس عدد من سيوف أسد الله (١) .

ومن بين الطباعين الإيرانيين المشهورين « قلب علي » ابن أسد الله . وقد عاش في أصفهان مع أبيه . ولقلب علي أربعة سيوف بديعة في مجموعة متحف والاس (٢) وعدة أسياف في مجموعة موزر (Moser) في المتحف التاريخي ببرن ونذكر أيضاً الطباع محمد زمان الأصفهاني تلميذ أسد الله (٣) وله سيفان تضمهما مجموعة متحف والاس (رقما ١٧٦٢ و ١٩٠٤) .

وصادق الطباع الذي يقرأ اسمه على سيف نقش عليه اسم الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٢ - ١٥٢٤) .

(١) أرقام هذه السيوف هي على التوالي : ١٣٩٨ و ١٤٠٢ و ١٤٠٧ و ١٤٣٩ و ١٤٤٣ و ١٥٤٠ و ١٦٢٨ و ١٧٥٨ و ١٩٩٥ و ١٩٩٦ وبعضها مزيف .

(٢) أرقامها ١٩٣٥ و ١٩٩٠ و ١٤٠٠ و ١٦٢٩ .

(٣) Egerton of Tatton : Indian Arms and Armour. p. 53.

وإبراهيم المشهدى (نسبة إلى مشهد) ابن محمد رضا . وقد وجد اسمه منقوشاً على خوذة تحمل شعار الشاه طهماسب (١٥٢٣ - ١٥٧٥) في متحف استانبول .

وعلى القزويني الذي عرفت نصاله في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر (١) . ومختار الأصفهاني ومحمد تقي الدين الأصفهاني والطباع فتح على الشيرازي (القرن ١٧) وله سيف من صنعته في متحف والاس (رقم ١٨٧١) .

وأكبر بن مولا صادق الأصفهاني (أواخر القرن ١٧) وأحمد أزاني وله سيف في متحف متروبوليتان نقش على نصله اسم ولقب السلطان أكبر إمبراطور الهند (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وعلى أكبر أردلاني ويرى اسمه منقوشاً على نصل مدينة بخيلة في متحف متروبوليتان للفنون (٢) وعلى محمد الشيرازي ومحمد رضا راقمي (٣) والأستاذ اسماعيل وزميلة على أكبر المذكور عاشا في أيام الشاه ناصر الدين .

(ج) الشام ومصر :

اشتهر كثير من مدن الشام منذ عرف التاريخ في صناعة طرق المعادن وذلك لوجود الحديد الصالح في بعض جبال لبنان وشمال الشام في الفرزل ودوما والشوير ومشفرة ومن جوار دمشق ومن مشارف حوران والقلمون (٤) . وقد اشتهر في الجاهلية سيوف مشارف الشام في أقصى تخوم الجنوب . كما نسبت السيوف الجيدة إلى دياف وإلى بصرى . وكلتاها في إقليم حوران . فقبل السيوف البصرية (٥) .

(١) Sammlung F. Sarre : Erzeugnisse. p. 81 .

(٢) Bulletin of Metropolitan Museum of Arts. March 1937.

(٣) B.W. Robinson : The sword of Islam. Apollo Annual. 1949.

(٤) عيسى اسكندر المعلوف : صناعات دمشق القديمة ص ٢٨٨ . محاضرات المجمع العلمي العربي عام ١٩٢٥ .

(٥) يقول عنها الحصين بن الحمام المرى الشاعر :

صفائح بصرى أخصمتها قيونها ومطرذا من نسج داود محكما

أما دمشق فقد اشتهرت منذ العصور الرومانية بصناعة السيوف الجيدة وحافظت على شهرتها بعد الإسلام . وكان يرد إليها الفولاذ الهندي الذي يحتوي على قليل من الألومين والسلكا لتطبع منه النضال التي اشتهرت بشدة صلابتها ومرونتها وفرندها البديع الرسم . وقد عرف الجوهر الدمشقي بالخناوي أو الخنون . وكانت تصنع السيوف أيضاً في زحلة والشويرة ودومة من لبنان . وقد حافظت دمشق على شهرتها الرفيعة في صناعة السيوف إلى أن فتحها تيمورلنك عام ١٤٠٠ م فأمن أهلها وقبل ما قدموه من الهدايا النفيسة ثم نكث بعهدده وسمح لرجاله بنهب المدينة . فعاثوا فيها وأضرمو النار في أرجائها وبعد أيام رحل تيمور عنها وقد أجلى معه بعض الأعيان وأصحاب الفضل وكل ماهر في فنه من النساجين والحياطين والطبايعين الذين اشتهرت بهم دمشق (١) .

وقيل أنه بلغ عدد هؤلاء مائة وخمسين ألفاً نقلهم إلى سمرقند ، كما شيد الصياقلة في خراسان مصانع السلاح التي اشتهرت فيما بعد بتحفها الرائعة (٢) .

وبرحيل الصناع الحاذقين عمل من بقي بعدهم على التقليد . وكانت صناعتهم تزداد سوءاً بتوالي الزمن . ذلك لأن السلاحين كانوا يحتفظون بأسرار صناعتهم ولا يورثونها إلا أبنائهم .

وارتكب سليم الأول عقب استيلائه على دمشق فعلة تيمور فاقتصرت مهمة الطبايع الدمشقي منذ القرن السادس عشر على إنتاج السيوف والخناجر العادية . وفي قليل من الأحيان النادرة كانت تستورد نصالها من الخارج وأغرقت بها أسواق الشام والحجاز ومصر . ومع ما أصيبت به صناعة السلاح الدمشقية من أضرار فادحة . يظن أنها نجحت في أبعاد النصال الفارسية عن أسواق الشرق الأدنى حتى أنه حوالي عام ١٥٥٠ كانت النصال الخراسانية تصل إلى الغرب عن طريق البندقية واليونان فحسب .

(١) نعمان قسطلي : الروضة الفناء في دمشق الفيحاء . ص ١٢٢ بيروت - ١٨٧٩ .

(٢) عيسى اسكندر المعلوف : محاضرات المجمع العلمي العربي في دمشق . ج ١ ص ٢٨٧

عام ١٩٢٥ .

وقد اشتهر في دمشق أسرات كثيرة من الطبايعين منهم : بنو السيوف من مسلمين ومسيحيين وآل بولاد وجوهر وجوهري ومسابكي وصيقل وحاداد ونحاس وحفار وطبايع .

ونعتقد أن الشهرة الفائقة التي لحقت دمشق كمركز لصناعة السيوف البديعة كان مبالغاً فيها كثيراً . وأهم الأدلة التي تؤيد ما نذهب إليه . أنه لم يصل إلينا سيف واحد صنعه طبايع دمشق بلغ في شهرته ما وصل إليه أسد الله الأصفهاني وغيره من صناع السيوف الإيرانيين والتركي .

وكانت السيوف الجيدة ذات الجوهر البديع تصنع إلى ما قبل الفتح العثماني لمصر خارج الشام ولا سيما في إيران والهند (١) .

وليس معنى هذا ان دمشق لم تطبع فيها السيوف قط . بل إنما كانت تنتج أسياً عادية تسد بها حاجيات الشام وربما بقية أجزاء الامبراطورية المملوكية .

والصناعة التي اشتهرت بها دمشق حقاً وخلدت لها الصنعة الدمشقية هي فن تكفيت المعادن وتطبيقه بالذهب والفضة . ذلك الفن الجميل الذي امتازت به وغمرت منتجاته بلدان العالم الإسلامي بل وبعض المدن المسيحية في الغرب المعاصر

(د) تركيا :

وقد عرف عن الترك أنهم صناع مهرة في عمل السلاح . ولا غرو فقد استنبطوا الحديد الخام من مناجم « ألتاي » القديمة . وكان الطبايعون الترك يصنعون السلاح لشعب الأبر (Avars) الذي ساد الأقاليم الشرقية في أوروبا إلى سهول المجر حتى زالت دولتهم .

وعندما استقر الترك في أوروبا تركزت في القسطنطينية صناعة السلاح . وكانت بروسه قد اشتهرت بصقل السيوف وطبعها كما عرفت أزمير .

ويمكن القول أنه في خلال القرنين ١٦ و١٧ بلغت صناعة السلاح في تركيا أوج قمتها وبلغ طبايعوها درجة في الإبداع يحسدون عليها (٢) .

Mayer : Mamluk Costume. p. 44-45. (١)

O. Sermed Mukhtar : Guide Musée militaire Vol. p. 70- 2.71. (٢)

وممن برعوا في صناعة السيوف التركية - الأوسطى سنان وقيل أنه صنع سيفاً كان يطوى نصله كالنطاق (الحزام) وكان مع مرونته سريع الاعتدال من تلقاء نفسه . ومن بين أسياف سنان سيف صنعه للسلطان سليمان بن سليم الأول (حوالي عام ١٥٤٤ م) نقش على نصله :

« هذا حسام معتبر - حرز سلطان البشر - السلطان سليمان بن سليم .
الله يعطيه الظفر » .

ونقش على الجانب الآخر للنصل « في دار الفتح بقسطنطينية . سنة ١٨٩٤ »
وفي عصر السلطان محمود (١٧٣٠ - ١٧٦٤) اشتهر الطباع « عجم أوغلو » ويقال أنه تدهورت بعده صناعة السيوف في تركيا .

ولا يخفى أن مثل تلك الصناعة الهامة الدقيقة أي صناعة طبع السيوف الجيدة وصقلها لا تتوقف أهميتها فقط على جودة المعدن الذي تصنع منه . ولكن الأهم من ذلك هو دربة الصناع الفنيين الفائقة وخبرة هؤلاء ومهارتهم أجيالاً متعاقبة . وبمعنى آخر استقرار هذه الصناعة بين أقوام تتولد وتربى فيهم روح الصناعة الدقيقة . ومثل هذا التفوق لا يتحقق بين الشعوب البدائية أو الأقاليم الرحل بل لدى الأمم المستقرة المتحضرة حيث يتوارث ويحيد أهل كل حرفة حرفتهم ويعملون دواماً على تقدمها .

عبد الرحمن زكي